المجلة العربية، جامعة داكا
المجلد التاسع عشر، يونيو ٢٠١٨ م

الشاعرات الأندلسيات المختارات ومميزات أشعارهن: دراسة وتطبيق

الدكتور محمد نصير الدين *

Abstract

Al-Sha`irat al-Andalusiyyah al-Mukhtarah Wa Mumayyejatu Ash`arihinna: Dirasah Wa Tatbiq.

When the part of Europe, which is now known as Spain, was captured by Arabs, it was named Andalus. Naturally Andalus was a charming, captivating and attractive land. Its land was fertile. It was a dream land of canals and rivers, trees, gardens and birds which are the sources of context for poets, writers and thinkers.

The conquerors, the Arabs, are a poetry loving nation. Here they could not forget poems. In addition, her nature attracted them for the purpose.

Poets both man and women, were very active and spontaneous in this land. Many female poets composed poems. Poems written by them were full of characteristics. We have, therefore, made an effort to write an article on the poetic works and their characteristics of ten female poets.

Keywords: Andalus, Poetic trends of female poets.

جزيرة الأندلس –كما كان يسميها أسلافنا العرب– اسم بلاد في الجنوب العربي من أوربا، يحددها شرقا البحر الأبيض المتوسط، وغربا المحيط الأطلسي، وشمالا خليج بسكائي وجبال البرانس، وجنوبا مضيق جبل طارق. فالأندلس أو بلاد الأندلس أو جزيرة الأندلس لم تكن معروفة بهذا الإسم، بل كانت تسمى بأسماء مختلفة: فقد سمّاها الأغريق "إيبريا" حين حكموها قبل الميلاد بنحو خمسمأة سنة. وقد سمّاها الرومان "إسبانيا". وذلك في القرن الثالث الميلادي. وحين أغارت قبائل الواندال على تلك البلاد، فقالوا

* أستاذ مساعد، قسم العربية، جامعة داكا.

"واندالوسيا"، أخذا من اسمهم "الوندال".[١] وأخيرا حكمها القوط حتى انتزعها منهم العرب . فأطلقوا عليها أسم "الأندلس" أخذا من كلمة "واندالس".[٢]

افتتحت الأندلس في أيام الوليد بن عبد الملك فكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة في ظهور الملة الحنيفية، وهو الذي جرد لها عاملاً من قبله.[٣] والأندلس إقليم طيب التربة خصيب الأودية، به كثير من الجبال التي تكتنف مراعي واسعة وسهولا ممرعة. تشقها أنهار عظيمة وجداول كثيرة، به أشجار باسقة ورياض ناضرة، وبساتين حافلة ومزارع كثيرة.[٤]

الأدب العربي استمر في الأندلس نحو ثمانية قرون (من ٩١هـ–٨٩٨هـ/٧١١م–١٤٩٢م) من الفتح الإسلامي إلى سقوط الخلافة والإمارة والدولة الناصرية وجلاء المسلمين عنها نهائيا على أيدي الأفرنج(سنة١٠١٨هـ/١٦٠٩م). لقد حوّم الشعراء والشاعرات المشارقة حول موضوعات المدح والفخر والحماسة والهجاء والرثاء والشكوي والوصف والغزل والمجون والنقد السياسي والاستعطاف وسواها. كذلك أيضاً حوّم الشعراء والشاعرات في الأندلس حول هذه الموضوعات التقليدية نفسها غير أن الشعراء الأندلسيين أبدعوا فن الموشحات[٥] في عهد الخلافة الأموية فيها. لقد ازدانت البيئة الأندلسية بكثيرمن النساء الشاعرات اللائي أسهمن في إثراء الأدب الأندلسي بألوان طريفة من موضوعات الشعر ومقطوعات رخية جذابة من فن القصيدة، فكان إثراؤهن للشعر أمراً بيّناً في المجتع. ومن هنا يكون جهد الشاعرات واضح الأثر رائع البهاء صافي النقاء، وليس أدل على ذلك من أنهن فرضن وجودهن فرضًا على موكب الشعر في الأندلس. فكنّ فيه كأزهار الشقائق بلونها الزاهي الأرجواني تشرق متميزة مختالة وسط بساط الأقاح الذي يغطي السهول ويوشي السفوح مع إطلالة الربيع. ولم يستطع شعراء الأندلس وشاعراتها أن يحدثوا مذهباً فنياً جديداً في الشعر العربي فقد جمدوا غالباً عند التقليد والصوغ إلي الشعر الغنائي علي نماذج قصائد المشرق وأوزانها من الشعر الدوري باسم المزدوج والمسمطات ومن الرباعيات والمقطعات

وغيرهما، ولكن أحدث عند الأندلس نهضة واسعة في الغناء وما يطوي من الموشحات والأزجال.[٦]

لقد عرف المشرق العربي عددًا من الشاعرات على فترات متقاربة حيناً ومتباعدة أحياناً، أمثال الخنساء (٥٧٥–٦٤٥م)، وليلي الأخيلية (ت ٧٠٤م)، وفضل، وعُليّة بنت المهدي (٧٧٧–٨٢٥م)، ونيران بنت جعفر بن موسى الهادي، وسلمى بنت القراطيسي (١١٣٦–١١٦٠م)، والشاعرة المهزمية (ت٢٠٠هـ) وعريب المأمونية (٧٩٧–٨٩٠م)، ولكن عدد هؤلاء قليل إذا ما قيس بعدد الشاعرات في الأندلس. المقَّري يترجم في كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لعشرين شاعرة الأندلس كن مشهورات ، ووراءهن كثيرات لم تكن لهن شهرتهن،والمشهورات هن: (الجارية العجفاء، حسانة التميمية، قمر الأشبيلية، الغسانية البجانية، صفية بنت عبد الله الربي، انس القلوب القرطبية، مهجة بنت التياني القرطبية، اعتماد الرميكية، بثينة بنت المعتمد بن عباد، أم العلاء بنت يوسف الحجارية، غاية المنى، هند جارية الشاطبي، الشريفة أمة العزيز، الشلبية، أسماء العامرية، قسمونة بنت اسماعيل، حفصة بنت الحاج الركونية، أم السعد بنت عصام الحميري، ولادة بنت المستكفى و أم الهناء بنت القرطبية) ومن هنا شاركت المرأة الشاعرة الأندلسية في كل فنون الشعر وأكثر أبوابه، فكانت تتغزل في الرجل تماماً كما يتغزل الرجل فيها، وكانت تلح في إغرائه وتصف محاسنها، وتذهب إليه زائرة تطرق بابه وتنادمه، كما كانت تمدح، وتفخر، ولكن في ظل أنوثتها، وتهجو، ولا تتورع عن استعمال أساليب الذين أُسفُّوا في الهجاء من المشارقة مثل بشار وابن حجاج وابن سكرة فلم تتحرج من ذكر العورات ولم تستح من ترديد بعض الألفاظ غير النظيفة التي يتحرج المحتشمون من الرجال عن ذكرها، وكانت في نفس الوقت تساجل الرجل قصيدة بقصيدة وقافية بقافية، جادة حينا وهازلة أحياناً.[٧]

وكان فنّهنّ من ناحية القول والصوغ والجرس والإشراق والجرأة والرصانة والجزالة والإطراف مما يدفع بالدارس إلى ضرورة الوقوف في ساحته بعض الوقت فاحصا متأملا مستبينا ما فيه من أسباب الجدة ومظاهر الإمتاع. وأن المرأة الشاعرة كلما كانت قريبة العهد بزمان الفتح كانت أقرب إلى عروبتها، وبالتالي إلى حشمتها والارتباط بأسباب التحرز في القول والتردد في الجرأة والابتعاد عن الإسفاف وتجنب الإفحاش، وكلما بعد العهد بها وانغمست في صلب " الأندلسية " كانت أقرب إلى التحرر الذي هو في حقيقته تحلل أكثر منه تحررا، وأصبحنا نقرأ للمرأة في مو ضوعات الشعر وأساليبه من خلال جرأة القول والهجوم على معاني الفحش ما قد رأيناه عند بعض الشعراء المشارقة المتحللين بحيث لا نكاد نحس فارقا بينهما.[٨] ولكن اقتصرنا هذه المقالة على عشرة من الشاعرات الأندلسية المنتخبة ومميزات أشعارهن خوفاً للإطالة.

واشتهرت على الأرض الأندلسية كثيرات من الجواري والقيان والنساء على الإنشاء الأدبي والعزف والغناء. وأن الحكام الأندلسيين أيضاً من أمراء بني أمية كانوا يستوردون الجواري الأديبات المدربات على حفظ الشعر وإنشاده. وكانت الجواري كلهن جميلات أديبات شاعرات عازفات مثل "قلم" جارية الأمير عبد الرحمن الأوسط في قرطبة، وهي من أصل رومي. وكذلك اشتهرت جوار أخريات من مثل "فضل" و "علم" وكذلك "قمر" جارية ابراهيم بن حجاج اللخمي، والجارية المعروفة العجفاء.[٩]

١–الجارية العجفاء

ولعل أول نساء الشاعرات اللواتي سجّلن أثرا وأثارة نسوية في الأرض الأندلسية في القرن الثاني الهجري هي العجفاء التي كانت من الجواري الوافدات من المشرق العربي نعرفها بصفتها التي بها عرفت وأصبحت تعرف بالجارية العجفاء. لقد كانت بالفعل عجفاء، هزيلة، ضعيفة ونحيفة، وكان سيدها رجلاً فقيراً اسمه مسلم بن يحيى مولى بني زهرة، وكان يسكن معها في بيت عرضه اثنا عشر ذراعا وطوله في السماء سته عشر ذراعا لا يكاد

يضم من الأثاث سوى نمرقتين قد ذهب عنهما اللحمة وبقي السدى، وكرسيين قد تفككا من قدمهما. وكانت تتقن من قول الشعر والغناء ما قد تعودت على قوله القيان، يعني الشعر الوجداني الغنائي الذي يخاطب العاطفة ويهز المشاعر. ومثل هذا الشعر يكون عادة من الغزل المهتاج الذي ترفده الشكوى بمعاني آسرة ويوشيه الحرمان بأنغام حزينة، وهذا بطبيعة الحال يختلف اختلافاً واضحاً عن شعر الحرائر الذي إن التزم الموضوع فليس عليه بالضرورة أن يلتزم المعاني ويلح على خلق جو الحزن الوجداني والكآبة النفسية في نطاق معاني الحب المقرون بالحرمان والغزل الموغل في الشكوى الحزينة، كانت الجارية العجفاء الدميمة شكلاً الساحرة فنًا تنشد وتغني فقالت:[١٠]

برح الخفاء فأيما بك تكتـــــم ** ولسوف يظهر ما تسر فيعلـــم

مما تضمن من عزيز قلبـــــــه ** يا قلب إنك بالحسان لمغـــرم

ثم انتقلت العجفاء على عودها إلى لحن آخر وشعر آخر فقالت :[١١]

يا طول ليلي أعـــــالج السقما ** أدخل كل الأحبة الحرمـــــــا

ما كنت أخشى فراقكم أبـــدا ** فاليوم أمسى فراقكم عزمـــــــا

ومن الطريف أن عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش(ت١٧٢هـ/٧٨٨م) عندما سمع بأدبها وفنها بعث إلى صاحبها فاشتراها وحُملت إليه.[١٢]

٢-الغسانية البجانية

ومن شاعرات القرن الخامس الهجري الشاعرة الأديبة الغسانية وهي منطقة بجانة التابعة لأقليم المرية من جنوب بلاد الأندلس، وهي شاعرة متمكنة تمدح الملوك. وشعرها يتسم بالأصالة والعمق ولها على القول تمرس وسلطان، وأبياتها قيلت في الغزل وشكوى الفراق،وفيها أماني بعودة أيام الوصال ودعوة إلى الصبر على فراق الأحبة إذ بانوا، حيث تقول:[١٣]

أتجزع أن قالوا سترحل أظعــان ** وكيف تطيق الصبر ويحك إذ بانوا
فما بعد إلا الموت عند رحيلهــم ** وإلا فصبر مثل صبر وأحـــــزان
عهدتهم والعيش في ظل وصلهــم ** أنيق وروض الوصل احضر فينــان
فيا ليت شعري والفراق يكون هل ** يكونون من بعد الفراق كما كانــوا

إنه شعر جميل فيه كبرياء وحب، وفيه تصبر ولوعة، وفيه استسلام وجزع على قلة عدد الأبيات، وهو إلى ذلك فيه قوة وفحولة وتمكن،[١٤] وهو لولا المسحة الأندلسية الرقيقة في البيتين الثالث والرابع لكانت المعاني مشرقية مدحية.

٣- بثينة بنت المعتمد بن عباد

أميرة أندلسية كريمة التي شهدت مباهج ملك أبيها المعتمد بن عباد[١٥] كبير ملوك الطوائف وكبير الشعراء الملوك وبطل الأبطال في معركة الزلاقة، والأسير بأغمات كما يؤسرعلوج الروم، إن المعتمد يشكل صفحات من المجد والترف والبطولة والإباء والشعر، ولقد ورثت ابنته بثينة روحه الشاعرة فهو شاعر الملوك وملك الشعراء، وورثت الشعر أيضا والجمال عن أمها الرميكية.[١٦]

إن لبثينة شعرًا كثيراً كان مشهورا بالمغرب ولم يبق منه إلا هذه القصيدة الرقيقة، إنه لما حلت النكبة بالمعتمد وأسر وحمل وزوجته إلى أغمات في المغرب، وتعرض قصره للنهب والسلب كانت بثينة في جملة من سبي من نساء القصر وصباياه، فاشتراها أحد تجار إشبيلية[١٧] وهو لا يعلم من أمرها شيئاً ظانّاً أنها واحدة من الجواري وأهداها لابنه، فلما أراد الابن الدخول بها امتنعت امتناع الحرائر وأظهرت له نسبها، وقالت: لا أحل لك إلا بعقد الزواج إن رضي أبي بذلك، وأشارت عليه وعلى أبيه بتوجيه كتاب منها إلى أبيها وانتظار جوابه، وكان هم أبويها لفقدها أسوأ وقعا عليهما من زوال الملك، فقد كانا متعلقين بها تعلقا شديدا، لقد وافق الشاب ووالده على رأي بثينة فكتبت خطابا فريدا في بابه بين الخطابات التي كتبت في التاريخ، لقد ضمنت خطابها قصتها كاملة في نطاق من

الفطنة وإكار من السداد وجعلت منه قصيدة موشاة بحكمة الشيوخ وكانت في عمر أزهار الربيع، مرنقة بالفخر الرائق وهي الأسيرة المغلوبة على أمرها، مفعمة بالصدق الذي كان ثمرة لعناية أبويها بتنشئتها عليه إبان الملك السليب، فلنردد ما كتبته بثينة من قصتها إلى أبيها في سجنه، وما حفظه أهل المغرب ورووه لسنوات عديدة متتابعة:[١٨]

اسمع كلامي واستمع لمقالتي ** فهي السلوك بدت من الأجياد

لاتنكروا أني سبيت وأننـــي ** بنت لملك من بني عبـــاد

إن الأميرة الصغيرة الغريرة كانت من الفطنة بحيث أقنعت الفتى وأباه بالانتظار، وكانت من الاعتراف بالجميل بحيث حسّنت لأبيها الموافقة على الزواج، وكانت من الكبرياء بحيث لم تنس أنها أميرة وابنة ملك، وكانت من الواقعية بحيث ارتضت حكم القدر في مصيرها، وكانت أخيراً من الشاعرية والصفاء بحيث دبجت بيراعها الرقيق قصة واقية من أكثر القصص في التاريخ أسى وأخذا بمجامع الأحاسيس والخواطر، فكانت هذه القصة الشاعرة في إطارها المؤثر العميق وأسلوبها المهذب الرقيق.[١٩] ومثل مريم، الأميرة بثينة بنت المعتمد بن عباد التي أسرت وبيعت إبان نكبة أبيها وكتبت إلى أبيها وهو في سجنه من بيت شاريها – وكان رجلا كريماً– قصتها شعراً تطلب رأي أبيها في الزواج بابن شاريها وتحسّن له في أدب جم وحياء وخفر فكرة الموافقة على الزواج. وكلّ من مريم وبثينة تقول الشعر على السليقة المستجابة لموهبة أصيلة وبديهة صافية.[٢٠]

٤– ولادة بنت المستكفي

المرأة الشهيرة هي ولادة **(ت٤٨٤هـ/١٠٩١م)** بنت المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن ناصر عبد الرحمن بن محمد المرواني من بني أمية بالأندلس. كانت أديبة شاعرة قرطبة والأندلس من القرن الخامس الهجري. وكان مجلسها في قرطبة منتدى للأدباء. واشتهرت باخبارها مع الوزيرين ابن زيدون وابن عبدوس وكان يهويانها. في شعرها رقة وعذوبة. توفيت بقرطبة. وأن ولادة فتنت شعراء زمانها بجمالها وسحرها

وشعرها وذكائها وثقافتها، وجمعت إلى منتداها من معاصريها الأدباء والشعراء والوزراء، وردد الناس شعرها واختلفوا إلى محاضراتها ومسامراتها. وكانت من نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضياء غرّتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكم أنساب، وطهارة أثواب. وكانت أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعراء وتساجل الأدباء وتفوق البرعاء، وعمرت طويلا ولم تتزوج قط. إلا أن ولادة تزيد بمزية الحسن الفائق، وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها، وكان لها صنعة في الغناء، وكان مجلسها يغشاه شعراء قرطبة وظرفاؤها فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها. بهذا الأسلوب الرائق المهذب كان يتناولها المؤرخون القدماء إعجابا بها وافتتانا بسيرتها وتقديرا لأدبها. وكانت أخبار ولادة مثيرة في حياتها كما كانت أشعارها أثيرة لدى الناس، فقد روى كثرة من مؤرخي عصرها أنها كتبت بالذهب على عاتقها الأيمن:[٢١]

أنا والله أصلح للمعالـــــــــي ** وأمشي مشيتي وأتيه تيهـــــا

وكتبت على العاتق الأيسر:[٢٢]

وأمكن عاشقي من صحن خدي ** وأعطي قبلتي من يشتهيهـــــا

٥- مهجة بنت التيّاني القرطبية

إنها شاعرة قرطبية[٢٣] المولد والنشأة جميلة الخلقة من أجمل نساء زمانها،وأخفهن روحًا، وأكثرهن دعابة. ولكنها كانت تنتمي إلى طبقة غير طبقة ولادة، بل كانت من الطبقات الشعبية العادية. فقد كانت ولادة فيما هو معروف أميرة من بيت الملك الأموي الأندلسي الذي هو امتداد لملك بني مروان في المشرق، وأما مهجة فكان أبوها بائع تين، وفواكه،

وخضر ولذلك فقد عرفت باسم مهجة بنت التّيّاني، نسبة إلي أبيها التّيّان اي بائع التين، ولكن وشيجة الأدب ورابطة العلم تستطيع أن تتخطي كل العوائق الطبقية، ومن ثم فإن ولادة قد أعجبت بظرف مهجة، وخفة روحها، ورقة شعرها، وجمال محياها فعلقت بها ولزمت تأديبها، ولكن علاقة مهجة بولادة، ما لبثت طويلا بين الشاعرتين الجميلتين حتى انقلبت وساءت فقالت فيها هجاءاً فاحشاً من ذلك اذي ألفته بيئة الأندلس مستوردة أصوله من الشرق. والشعر لمهجة قليل جداً، ولا نكاد نجد منه مايصلح للنشر غير هذين البيتين اللذين يعتبران من أجود الشعر وأطيبه حول ولادة:[٢٤]

لئن حلأت عن ثغرها كل حائم ** فمازال يحمي عن مطالبه الثغر

فذلك تحميه القواضب والقنـــا ** وهذا حماه من لواحظها السحر

وفي البيتين صنعة جميلة خفيفة الظلّ لم تفسد من المعنى الذي استهدفته الشاعرة حين عمدت إلى الجناس والتورية واللف والنشر من فنون البديع. على أن هذه الشاعرة على جودة شعرها كانت من الخلاعة في القول والفحش في الشعر ما جعلها تذهب في تعبيراتها مذاهب تنال من عفة قائلتها بذكر عورات الرجال في شعرها، وهي لا تتورع عن النيل من ولادة مستغلة طبيعة الاسم، فمعنى لفظ ولادة المرأة الكثيرة الإنجاب، ولكن الأميرة ولادة لم تتزوج في حياتها وماتت بعد الثمانين من عمرها عذراء، غير أن مهجة السليطة الشعر البذيئة اللسان تهجو ولادة مستوحية معاني الهجاء من معنى الاسم فتقول:[٢٥]

ولادة قـــــــد صرت ولادة ** من غير بعل، فضح الكاتـــــم

حكت لنا مريـــــــــم لكنه ** نخلة هذي (كلمة فاحشة) قائم

إن هذين البيتين فيهما من الفحش والقذف والإسفاف بحق صاحبها إلا أنهما يشيران إلى قدرة مهجة في فن الهجاء، مع مقدرة وملكة نادرة في فن السخرية تشبه فن ابن الرومي الذي فاق الشعراء في هذا المجال، بحيث أن فحش اللسان يجري عند مهجة بطلاقة، فهي تستعمل الألفاظ المكشوفة دون تورية أو حياء.[٢٦]

٦–حفصة بنت الحاج الركونية

تعتبر حفصة **(ت٥٨٦هـ/١١٩٠م)** بنت الحاج الركونية[٢٧] إحدى شواعر الأندلسيات الشهيرات في القرن السادس الهجري، بل هي شاعرة غرناطة وماتت في مراكش.[٢٨] وكانت لطيفة، حلوة الحديث، ندية النفحات، عطرية الهمسات والنسمات وكانت أديبة شاعرة جميلة مشهورة بالحسب والمال. وأنها كانت من أشراف بلدتها غرناطة. وحفصة في غرناطة على زمانها مثل ولادة في قرطبة على زمانها أيضاً، بل إن حفصة أشعر، وهي في غزلها أكثر جرأة في الهجوم على معاني العشق والإثارة والغيرة، وإذا كانت ولادة قد ارتبطت بابن زيدون الوزير الشاعر الكاتب فإن حفصة هي الأخرى قد ارتبطت بالوزير الشاعر الكاتب أبي جعفر أحمد بن سعيد وزير بني عبد المؤمن، وإذا كان ابن زيدون قد لقي منافساً في حبه ولادة فإن ابن سعيد قد صادف هو الآخر منافساً أقوى في حبه حفصة، لقد كان المنافس لابن زيدون وزيرا مثله هو أبو عامر بن عبدوس، أما منافس ابن سعيد فهو الملك نفسه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن علي الذي كان يلقب بأمير المؤمنين، وإذا كان الدهر قد قلب ظهر مجنه لابن زيدون فإن ذلك كان في حرمانه من ولادة وانقلابها عليه واغترابه منفيّاً من بلده، وأما أبو جعفر فقد كان حظه من حفصة أوفر من حظ ابن زيدون من ولادة فقد ظل معشوقاً طول عمره إلا في فترات الدلال وهي قصيرة، بل لعله كان أكثر وقته مطلوبا وليس طالباً، ولكنه لسوء الحظ وقع في حبه لحفصة في منافسة كان أهلاً لها من حيث الجمال والعقل والشعر ولكن لم يكن أهلا لهذه المنافسة من حيث السلطة والقوة فما زال به الملك العاشق المنافس حتى تلمس له أسبابا فقد قتل الملك وزيره ابن سعيد.[٢٩]

واختيرت حفصة الركونية أستاذة ومؤدبة لنساء بني عبد المؤمن الذين تملكوا غرناطة على عهد مروان بن سعيد والد أبي جعفر. وكانت حفصة ذكية نابهة لاتعيقها المواقف، ولاتتهيب إذا وقف أمام الكبراء والأمراء، بل ينطلق لسانها ببيان يبهر العقول، فقد

صادف أن لقيت عبد المؤمن في قصره –وهو مؤسس دولة الموحدين _ فانشدت ارتجالا بين يديه، وكانت تعلم النساء في داره– حيث سألها أن تنشده فقالت:[٣٠]

يا سيد الناس يامـــــــــن ** يؤمل الناس رفـــــــــده

امنن علي بطـــــــــــرس ** يكون للدهر عـــــــــــده

تخط يمناك فيـــــــــــه ** "الحمد لله وحـــــــــــده"

وأشارت حفصة بذلك إلى شعار دولة المو حدين، فقد كانت العلامة السلطانية أن يكتب السلطان بيده بخط غليظ في أعلى المنشور "الحمد لله وحد ". ولا شك فيه أنها بلغت بهذه الأبيات السُها، ودلت على نباهتها، وذكاءها وحضور بديهتها، وحسن محاضرتها وجمال خاطرها، وسادت هذه الأبيات مسيرة الشمس في بلاد الأندلس؛ حتى إن أبا عبد الله بن مرج الكحل الشاعر المشهور امتدح الناصر حفيد عبد المؤمن بن علي بقرن من الزمان بمعاني سابقته حفصة بنت الحاج الركونية فقال:[٣١]

ولما توالى الفتح من كل وجهـــة ** ولم تبلغ الأوهام في الوصف حده

تركنا أمير المؤمنين لشكـــــره ** بما أودع السر الإلهي عنـــــده

فلا نعمة إلا تؤدي حقوقهـــــا ** علامته بالحمد لله وحـــــــده

وعندما نلاحظ فوجدنا أن رقة ألفاظ حفصة وليونة معانيها أكثر تأثيرًا في النفس من ألفاظ وأبيات ابن مرج الكحل، على الرغم من أن حفصة قد ارتجلتها ارتجالا. وكان في حفصة لطف وخفة روح وصفاء بديهة، لقد كانت لشهرتها كثير من الناس يطلبون منها أن تهديهم شيئا من جمال خطها، وهمسات شعرها على بطاقات يحملونها معهم. حتى إن علية النساء من _أعيان غرناطة[٣٢] كن يطلبن من حفصة أن تهديهن شيئا من زهر كلامها، ليكون عندهن ذكرى وتذكارًا. لقد أرسلت إليها أخت الوزير أبو بكر بن يحيى بن محمد بن عمر الهمداني أن تكتب شيئا بخطها، فكتبت بهذين البيتين:[٣٣]

يا ربة الحسن بل يا ربة الكرم ** غضي جفونك عما خطه قلمي

تصفحيه بلحظ الود منعمـــــه ** لا تحفلي برديء الخط والكلم

إن طبيعة المرأة العاشقة تتمثل في حفصة أكثر مما تتمثل فيها طبيعة المرأة الشاعرة، بل لعلنا نقول إن مظهر العشق والشعر قد اجتمعا وتصارعا وتساجلا في نفس حفصة، ولم يكن شعرها مع جودته مقصورا على أسلوب واحد، بل كانت تتفنن فيه، وتدخل في أساليب مختلفة، وكانت تكتب الخط الجيد، ولم تلتفت سوى أبي جعفر بن سعيد.[٣٤]ومما يزيد في في حسن أغزال حفصة أنها كانت تخطها بأجود خط، ونرى أنها لم تخرج في غزلها نمطا جديدًا من تغزل المرأة من كلمات الساحرة حُلوةً على الأوراق، لتسكن تلكم الكلمات بين حنايا القلوب، وتستقرّ في خبايا النفوس، ولكنها تبدوا أكثر وضوحا في النساء.[٣٥]

٧– أسماءالعامرية

أسماء العامرية كانت شاعرة من شواعر إشبيلية فى القرن السادس الهجري. وهي من مدرسة مريم وبثينة، ويبدو أنها كانت تمتّ بصلة القربى إلى عبد المؤمن بن علي.[٣٦] فقد كتبت إليه شعراً تشكو ظلماً وتسأله في رفع الإنزال عن دارها والاعتقال عن مالها، ولم يصل إلينا من شعرها إلا أبيات قليلة بعثت بها إلى عبد المؤمن بن علي أول خليفة للموحدين انتسبت فيها إليه نفسها وقالت :[٣٧]

عرفنا النصر والفتح المبينـــا ** لسيدنا أمير المؤمنينـــا
إذا كان الحديث عن المعالـي ** رأيت حديثكم فينا شجونا
رويتم علمه فعلتمــوه ** وصنتم عهده فغدا مصونــا

وشكوى النساء ورفع ظلامتهن لدى الحكام معروف في الأندلس، كما أن اطلاعهن على الأحكام الشرعية وذكاءهن في القضاء مشهور.[٣٨]

٨–أم الهناء بنت عطية القرطبية

وفي القرن السادس الهجري شاعرة وحيدة مقلة هي أم الهناء بنت القاضي أبي محمد بن عبد الحق بن عطية[٣٩]القرطبية كانت مشهورة بين نسوة الأندلس ومثلى لبنات عصرها، ونهلت معارفها في بلدها قرطبة، وهي سيدة أمصار الأندلسية. فقد كانت قبة الإسلام،

ومجتمع أعلام الأنام، وكانت مركز العلماء ومعدن الكرماء، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد؛ لأن قرطبة من أكثر بلاد الله كتبًا. وفي حين يُتحدث عن أم الهناء يقال إنها كانت حاضرة النادرة، سريعة التمثل، من أهل العلم والفهم والعفل.[٤٠] وكانت أم الهناء رقيقة المشاعر كأبيها القاضي، وأن أباها لما ولي المرية، دخل داره وعيناه تذرفان وجْدًا لمفارقة وطنه، وتلمح أم الهناء الدمع يسيل من عيني أبيها فأنشدت ممثلة:[٤١]

يا عين صار الدمع عندك عادة ** تبكين في فرح وفي أحـــزان

فاستقبلي بالبشر يوم لقائلـــــه ** ودعي الدموع لليلة الهجران

وهذا البيت الجميل الساحر الذي تمثلت به أم الهناء، ليس بيتا يتيما مفردا، وإنما هو حبة في عقد بضعة أبيات غزلية عفة رقيقة بعيد عن هجر القول وفحشه كأنساج الصباح في قرطبة، تحمل بين سطورها وحروفها براءة القول الغرائز ولطافته من زينه لفظية بديعة، والأبيات هي:[٤٢]

جاء الكتاب من الحبيب بأنه ** سيزورني فاستعبرت أجفاني

غلب السرور علي حتى إنـــه ** من عظم فرط مسرتي أبكانـي

٩- الشّلبيّة

وهذه إمرأة وصل صوتها المتمثل في شعرها إلى قصور السلاطين والأمراء وذلك في القرن السادس والقرن السابع الهجري، وهي تظهر شكواها الحزينة التي رسمتها شعرًا،حيث كانت تعاني من ظلم وجور والي بلدها الذي أحال مدينة شلب[٤٣] غربي الأندلس إلى نار حامية بعد أن كانت جنة جميلة بهية المنظر والمخبر، ولم يخف ذاك الوالي الظالم من عقوبة الله عزّ وجلّ. وهذه الشاعرة التي يوردها ابن الأبار ويذكر أنه لم يقف على اسمها كاملا، إنما عرف أنها من مدينة شلب بغرب الأندلس فسماها الشلبية نسبة إلى مدينتها. لقد استبد ظلم الحكام وصاحب الخراج في بلدتّها وكان لا بد أن يرتفع صوت يشكو الظلم

ويكافح الفساد، فكان هذا الصوت الجريء لشاعرة رصينة جريئة حين لم تستطع أصوات أخرى ترفع فقالت موجهة شعرها إلى السلطان يعقوب المنصور أحد ملوك الموحدين الذي حكم من سنة (٥٩٥-٦٠٩هـ) حيث تقول :[٤٤]

قد آن أن تبكي العيون الآبيـــه ** ولقد أرى أن الحجارة باكيه

يا قصد المصر الذي يرجي بـــه ** إن قدّر الرحمن رفع كراهيـه

خافوا وماخافوا عقوبة ربهـــم ** والله لاتخفى عليه خافيـــه

يقال إن القصيدة قد ألقيت على مصلى المنصور يوم الجمعة، فوقف المنصور على حقيقتها، وأمر المرأة بصلة، وكشف ظلامتها بعزل ذلك الوالي.[٤٥]

١٠-قسمونة بنت إسماعيل

إمرأة شاعرية يهودية تدعى: قسمونة بنت اسماعيل بن بغدالة تعيش في الأندلس الإسلامية، وكان المجال فسيحا حينئذ فيها لكل الأديان، وحرية العقيدة، والتسامح الإسلامي يشمل الخاص والعام، ويحفظ لكل السكان- كرامتهم وحقوقهم من غير تفريق في الدين أو تمييز في العنصر، أو الجنس، أو اللون. ولقد كانت غرناطة متصفة باليهود حتى سميت غرناطة اليهود. ومنها شاعرنا " قسمونة بنت اسماعيل " من أهل القرن السابع الهجري. ويرى أن قسمونة حزينة باكية من الوحدة والفراغ، وانعدام القرين مع جمال القوام وزهرة الشباب. وعندما بلغت سنّ الزواج ونظرت في المرآة ذات يوم وهي في شرخ شبابها ولم تتزوج فقالت متنهدة متألمة، إذ لم يقدم إليها من يقتطف منها الثمر ويجني منها الورد والأزهار فأنشدت.[٤٦]

أرى روضة قد حان منها قطافها ** ولست أرى جان يمد لها يـدا

فوا أسفا يمضي الشباب مضيعـا ** ويبقي الذي ما إن أسمه مفردا

فسمعها أبوها وانتبه لحالها فنظر في تزويجها و سعى في تلبية أنوثتها.[٤٧]

وفي الختام نحن نقول إن الشاعرات الأندلسيات من القرن الثاني الهجري إلى القرن السابع الهجري قد أفسحن لشعرهن مكاناً رحيباً بأجمل الألحان، وأندى الكلمات، وأعذب الهمسات، وفرضن وجودهن ونصيبهن أكثر من نصيب أخواتهن في المشرق، على أنهن يشاركن في النهضة الأدبية النسوية خصوصًا في المدح والهجاء والغزل، وفي وصف الطبيعة الأندلسية الساحرة الآسرة، وكما اتصفت بعضهن بالعفة والتعقل. والشاعرات الأندلسية، بعد ذلك، إذا عمدت إلى الصور البيانية من الناحية الفنية يستعملن المحسنات البديعية على نحو ما كن يفعلن من أخواتهن المشارقة من السجع والازدواج والجناس من كفاءة فنية في تحسين المعنى بأثواب جديدة من غزل المرأة في غير ما غلوّ أو إسراف كما قدمنا في هذه المقالة المختصرة.

المصادر والمراجع

١. والوندال: اسم لبعض القبائل الأوربية الشمالية التي أغارت في أوائل القرن الخامس الميلادي على ممتلكات الرومان. الدكتور عبد العزيز بن عبد الله العواد، الشعر الأندلسي في ظلال الخلافة الأموية (الرياض: مطابع بحر العلوم، ١٩٨٢م)، ط١، ص٢٣.

٢. واندالس– التي هي اسم للقبائل الجرمانية التي اكتسحت الدولة الرومانية. الشعر الأندلسي في ظلال الخلافة الأموية، ط١، ص ٢٤. وكلمة الأندلس مشتقة من إسم قبائل "الوندال" الذين سكنوا شبه الجزيرة مقابل الساحل الأفريقي، وكانت تطلق كلمة "فندلسيا أو أندلسيا" على موطن هذه القبائل. أ.د. عمر ابراهيم، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس موضوعاته وفنونه (العراق: جامعة كركوك، ٢٠١١م)، ص١٠.

٣. محمد بن عبد العزيز الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م)، ط٢، ص٣٥.

٤. عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٣٦م)، ص١٣.

٥. الموشحات: الموشحة ينظم بمطلع يسمونه "قفلا" وللقفل جزءان، وكل جزء مؤلف من فقرتين المتساويين في الوزن " فاعلن، فاعلات" ولكن كل فقرة تتحد في القافية. وأما قوافي الأجزاء فمختلفة عن قوافي المطلع، ثم ختم البيت بقفل من نفس الوزن، ولكن قوافيه على نظام قوافي المطلع. مصطفى السقا، المختار من الموشحات (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م)، ص٤٠.

٦. د. أحمد هيكل، الأدب الاندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة (مصر: دار المعارف، ١٩٥٨م)، ط٧، ص٥. د. ميشال عاصي، الشعر والبيئة في الاندلس (بيروت: المكتب التجاري، ١٩٧٠م)، ط١، ص ٣٨.

٧. د. مصطفى الشكعة، الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٣م)، ص ١١٧–١١٨؛ د. شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي عصر الدول والإمارات الاندلس (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩م) ، ص٧.

٨. د. مصطفى الشكعة، الأدب الاندلسي، ص ١١٨.

٩. أحمد خليل الجمعة، نساء من الأندلس (بيروت: اليمامة، برج أبو حيدر خلف ربوص الأصلي، ٢٠٠١م)، ط١، ص٣٥.

١٠. الشيخ أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م)، ج٣، ص١٤٢.عمر رضا كحالة، اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام (بيروت: مؤسسة الرسال، ١٩٨٤م)، ط٥، ج٣، ص٢٥٦.

١١. نفح الطيب، ج٣، ص ١٤٢.

١٢. المصدر نفسه.

١٣. اعلام النساء، ج٤، ص١٠. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٥م)، ط٤، ج٢، ص١٩٢.

١٤. أ.م.د. يونس هاشم مجيد، معاني الغزل عند شاعرات الأندلس (العراق: جامعة ديالي) العدد الرابع والعشرون، مجلة الفتح، ٢٠٠٥، ص٧.

١٥. محمد بن عباد المعتمد على الله (١٠٤٠–١٠٩٥م) كنيته أبو القاسم، وهو الجواد الشجاع البليغ، ذو الأخبار الشهيرة الذكر، والأنباء الموروثة على الدهر، قال ابن الصيرفي:" المعتمد على الله محمد بن عباد نسيج وحده في الجود، وأصلب نظرائه مكسر عود، فذ في البلاغة، طرِف في الشعر والكتابة، بارع النظم والنثر، كثير الأدب....." عبد الوهاب عزام، المعتمد بن عباد (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢م)، ص ٢٢–٢٣.

١٦. الرميكية: ومن مشاهير نساء الأندلس في القرن الخامس الهجري فهي اعتماد الرميكية، التي شاركت المعتمد في سرّاء حياته وضرّاءها. وتعرف بالسيدة الكبرى، وتلقب بالرميكية نسبة لمولاها رميك بن حجاج، ومنه اشتراها المعتمد في أيام أبيه المعتضد. وكان مفرط الميل إليها، حتى تلقب بالمعتمد لينتظم أسمه حروف إسمها، وهي التي أغرت سيدها بقتل أبي بكر ابن عماد لذكره إياها في هجائه المعتمد. ابن الأبّار، الحلة السيرا، تحقيق الدكتور حسين مونس (بيروت: دار صادر، ١٩٨٥م)، ط٢، ج٢، ص٦٢.

١٧. إشبيلية: بالكسر ثم السكون، وكسر الياء الموحدة، وياء ساكنة، ولام وياء خفيفة. مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم أعظم منها تسمى حِمص أيضاً. وبها قام بنو عباد. وإشبيلية قريبة من البحر يطل عليها جبل كثير الشجر والزيتون وسائر الفواكه. ومما فاقت به على غيرها من نواحى الأندلس زراعة القطن فإنه يحمل منها إلى جميع بلاد الأندلس والمغرب. ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٩٧٧م)، ج١، ص١٩٥.

١٨. نفح الطيب، ج٤، ص٢٨٤. أحمد خليل جمعة، نساء من الأندلس (بيروت: اليمامة، برج أبو حيدر خلف ربوص الأصلي، ٢٠٠١م)، ط١، ص١٥٩-١٧٢.

١٩. الأدب الاندلسي، ص١٧١-١٧٢.

٢٠. المرجع السابق، ص ٢٣٧-٢٣٨.

٢١. محمد بن أحمد التجاني، تحفة العروس ومتعة النفوس، تحقيق جليل العطية (لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٢م)، ط١، ص٤٥٤. نساء من الأندلس، ص٤١٤.

٢٢. المصدر نفسه.

٢٣. قرطبة: بضم أوله، وسكون ثانيه، وضم الطاء المهملة أيضا والباء الموحدة، كلمة عجمية رومية. وهي مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها وكانت سريرا لملكها وقصبتها وبها كانت ملوك بني أمية. معجم البلدان، ج٤، ص٣٢٤.

٢٤. نساء من الأندلس، ص٣٧٤.

٢٥. المرجع السابق، ص ٣٧٥.

٢٦. نساء من الأندلس، ص٣٧٥.

٢٧. رُكانة: مدينة لطيفة من عمل بلنسية بالأندلس. معجم البلدان، ج٣، ص٦٣.

٢٨. مراكش: بالفتح ثم التشديد، وضم الكاف، وشين معجمة، أعظم مدينة في المغرب وأجلّها، وبها سرير ملك بني عبد المؤمن. وكان أول من اتخذ بها البساتين عبد المؤمن بن علي، يقولون إن بستانا منها طوله ثلاثة فراسخ. معجم البلدان، ج٥، ص٩٤.

٢٩. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تعريب: د. رمضانه عبد النواب (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٨٣م)، ج٥، ط٣، ص ١٣٠.

٣٠. نساء من الأندلس، ص٢٠٠.إمام جلال الدين سيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تحقيق عبد اللطيف عاشور (القاهرة: مكتبة القرآن، ب ت)، ص٤١.

٣١. المرجع السابق، ص٢٠١.

٣٢. غرناطة: بفتح أوله، وسكون ثانيه ثم نون، وبعد الألف طاء مهملة، وهي أقدم مدن الأندلس وأعظمها وأحسنها، يشقها النهر المعروف بنهر قلزم. معجم البلدان، ج٤، ص١٩٤.

٣٣. المرجع السابق، ص ٢٠٩.

٣٤. زينب فوّاز، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٤م)، ص٢٧٧.

٣٥. نساء الأندلس، ص٢١٢.

٣٦. ولد عبد المؤمن بن علي في قرية صغيرة تسمى "تاجرا" سنة ٤٨٧هـ في أيام يوسف بن تاشفين، وكانت وفاته في سنة ٥٥٨هـ، واختلف المؤرخون في نسبه، فمنهم من يجعله متصلا بالرسول صلى الله عليه وسلم اتصالا وثيقا = من ولد سليم بن منصور بن قيس ين عيلان بن مضر جد النبي —صلى الله عليه وسلم. صالح بن قربة، عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٩١م)، ص٥–٦.

٣٧. اعلام النساء، ج١، ص٥٦. نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٢.

٣٨. شاعرات من الأندلس، ص١٧٢.

٣٩. هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي قاضي غرناطة مشهور بابن عطية، وهو صاحب التفسير الكبير في القرآن. وقد ولّى أبوه أيضًا قضاء غرناطة. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٥م)، ط٤، ج٢، ص١١٧.

٤٠. اعلام النساء، ج٥، ص٢١٣.

٤١. نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٢. نساء من الأندلس، ١٤٩.

٤٢. المصدر نفسه.

٤٣. شِلب: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره باء موحدة. وهي مدينة بغربي الأندلس، وهي قاعدة ولاية أشكونية، ليس في الأندلس بعد أشبيلية مثلها. معجم البلدان، ج٣، ص٣٥٧.

٤٤. نساء من الأندلس، ص٢٦٦. نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٤.

٤٥. نساء من الأندلس، ص ٢٦٦.

٤٦. المرجع السابق، ص٣٤٧.

٤٧. أعلام النساء، ج٤، ص٢٠٨.